الدلالة الكونية في ملحمة الطف الخالدة

((أفق النسق السيميائي لبطولة الامام الحسين عليه السلام))

د. ناصر شاكر الاسدي / جامعة البصرة / كلية الآداب

ملخص

نحن إزاء محاولة للتعرف على أبعاد الدلالات الكونية ومدى إمكانية تعالقها مع المنهج السيميائي وفق نظرية التحليل السيميائي لمقتربات عدة تتجلى فيها العتبة النصية بأبعادها المختلفة وصولاً الى حيثيات الاستقراء المؤجل وتحديد معالم مبكرة للبطل وديناميةالنص الذي كان يضم حراك هذا البطل وعروجاً إلى سيميائية ألوان ذلك الحراك ومدى فاعلية علاماته الدالة عليه وهو بالتالي سياحة في فرائد التراث العربي والاسلامي من منظور كوني ورسالي للتعرف على مجمل الدلالات السيميائية التي يكتنفها نص مثل نص ملحمة كربلاء والتعرف على إستقراء أفق النسق السيميائي لبطولة فريدة.

Summary

We are about trying to identify the dimensions of the semantic universe and the possibility of relation with curriculum semiotic according to the theory analysis, semiotic to several approaching reflect the threshold text with its various dimensions down to the details of induction, delayed defining early champion and dynamic text, which included a mobility that hero and to stay at semiotics colors that mobility and the extent of effectiveness of signs by function and is therefore by unique heritage tourism in the Arab and Islamic world from the perspective of universal and the epistolary to identify the overall semantic semiotics, shrouded in a text such as the text of the epic of Karbala and the identification of induction horizon pattern unique semiotic Championship

توطئـــــة :

لا غرابة في أن تكون الدلالات الكونية هي الاكثر إحاطة بالمنقول الكوني وعلاقته بالموروث تارة والراهن تارة أخرى ، ونحن إذ نتصدى لموضوع غاية في الأهمية والحساسية ، لأنه توظيف إستقرائي يقفز فوق ناصية المناهج التي أستكملت طروحاتها أمثال البنيوية والاسلوبية والشكلانية وغيرها ، التي تراجعت عن مسايرة الحدث المتعلق بلغة الأشياء المستعصية دوماً على الأنسان ، وهو الذي وقف دوماً حائراً إزاء ما يطرح من مناهج لا تعرف بقيمته ومدى تعلقه بكونه المجهول .

ونحن في هذا البحث نحاول سبرغور الدلالات الكونية ونحاول قدر المستطاع توظيف الملامح الدلالية ثم السيميائية التي تعمل متظافرة لاكتشاف أبعاد المنهج السيميائي في قضية فريدة من نوعها ، قضية تسلط الضوء على ملحمة رسالية خالدة أعطت الإنسان حريته واحترامه ومهدت للمظلومين في كل بقاع الأرض أن يقولوا : هيهات منا الذلة . المقولة الحسينية الخالدة ، قضية يكشف النقاب فيها عن الاشارات الكونية وعن الرموز الرسالية ، وعن الأبطال الخارقين في معركة الطف في كربلاء الدم والشهادة .

1- على عتبة النص :

عتبة أم عتبات ، تلك بوابة الأفق السيميائي ، التي كشفت لنا عنواناً كونياً مركباً يستحضر معه كل الدلائل الاشارية لقضية عالمية ، لا تحدها حدود من البيئية والمحلية والقطرية قضية تعالج كل قضايا الإنسان المعاصر دون إستثناء . لأنها ما كانت لتخاطب لوناً أو جنساً أو تكتلاً ، بل كانت تخاطب أرواح هؤلاء البشر وعواطفهم .

وعلى عتبة النص تطالعنا كلمتان دلاليتان تتفردان بوزنهما المنفرد ، الأولى (الحسين) (عليه السلام) والثانية (كربلاء) اللتان تمثلان نسقاً دلالياً أو كونياً كما تعطيان فضاءين متمايزين كونهما يشكلان حدثا استقرائيا .

ان اهم سمات العنوان هي الظهور أو الإعلان والسبق والاعتراض ، والظهور في العتبة النصية الأولى وأعني كلمة (الحسين) تعني الولادة وبداية لملء الفراغ الكوني في إستقراء حدث مهم ، لأن العنوان يظهر الامتداد الأول للنهج الرسالي ، وذلك الفراغ الذي يسبق العنونة يكون مرئياً أو مكشوفاً يتمظهر في عوامل الكشف عن المجهول ، وهذه الدلالة تعمل على أن يكون العنوان مرئياً من الداخل : أي فاعلاً لحركته الزمانية والمكانية مالئاً الفراغ الى الحد الذي يتماهى العنوان زمكانياً موحداً من حيث الطرح والاستعلاء لوجود علل كونية خالقة لذلك من شأنها إعطاء الخلود التام لتلك الفاعلية ، وكما هو موضح في الآتي:

الحسين : مجموعة حروف مهمة . هي الحاء والسين والياء والنون ، فالأول مع الثاني والثالث والرابع يعني الحسين والثاني السين مع الياء يعني الرسول ، يس كونه اسماً من اسمائه (ﷺ) والحاء ما يستبطن في محايثة معانيه الداخلية من خلال التحليل والتأويل.

الاول حرف الحاء : حمرة دلالة واضحة للون الدم ، وكون الدم يشكل سيميائياً الانبثاق المتوحد بين العنوان والعلوان ، لأن ذلك يعني أن حرف الحاء من كلمة الحسين يشكل إنبثاقاً سيميائياً بإتجاه اللون الأحمر وهو الدم . الذي يشكل إنعطافاً كونياً سيكثر الحديث عنه ، كونه : أي الدم سيقود الحياة ويكون عاملاً للإنتصار ، وسيكون مساراً فريداً لكل الرموز حين ينتصر الدم على السيف .موروثاً وعلى الطغيان راهناً .

الحاء : حرقة ، تلك الحرقة التي ألهبت قلوب المؤمنين ، عند إستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) لا تزول أبداً فدلالة الولاء والحب معروفة بتلك الاشارة التي يحترق لها قلب المؤمن حزناً عليه .

والحاء : حواري ، تشكل إنعطافة حقيقية للإنطلاق من محور الهزيمة الى محور الانعتاق وكما كان يشكل المحور العام بالهزيمة في نفوس من قاتلوه (عليه السلام) ، أولئك الذين باعوا أنفسهم للدنيا ، يقابله المحور الخاص الذي جسد الانتصار وهزم التردد في نفوس ثلة من حواري الإمام الحسين (عليه السلام) والحاء حب وحياة وحريق وحافة الشئ وغيرها الكثير .

إن الدلالة تتمظهر حينما يتم الاقتران العميق بين الدال والمدلول في اذهاننا[1] ، ذلك الإقتران إنما ينسجم ذهنياً ونفسياً في دلالة الحرف الموجه الى المركز الذهني الذي يصنع المدلول هناك من خلال أهمية الحرف المجسد للفاعل الذات المركزي الذي تتمحور حوله كل الفاعليات الأخرى ذات الصلة بموضوعه الولادة والظهور والإعلان .

إن الكون الذي يتجلى به الإمام الحسين (عليه السلام) قد تجاوز حدود المحلية وهوبالتالي خطاب كوني أو رسالة إستطالت عبر حدود المكان منعطفة نحو زمان ومكان مطلقين تتجسد من خلالهما أروع الصور التي لا يمكن لها أن تتكرر في غير كربلاء على الإطلاق ، ومن هنا جاءت القداسة لتعلن أن العدد البالغ أثنين وسبعين رجلاً هزموا مطلق إمبراطورية الحكم الأموي الى يوم الدين .

الثاني حرف السين : فالسين سيف واحدوهو سيف الحسين(ع) و سيوف متعددة وهي سيوف أعدائه التي تتكسر في كربلاء بفعل الصمود والبطولة ، حيث ينتصر الدم على السيف في أكبر مواجهة بين الحق والباطل ، ودلالة انتصار القتلى على الأحياء ، ينتصر الدم على لمعان السيوف ، تنتصر الرؤوس المقطوعة المعلقة على رماحها ، تعلن صرختها المدوية ، تلك الدلالة تعمل على تأهيل الذات الفاعلة كي تتمظهر في أشكال متنوعة توصل إلى **((إنجاز الذات في الحياة التي تعتبر فضاءً إفتراضياً يكون الرجل مدعواً لملئه بأعماله بتحقيق شيء ما . والظهور في نفس الوقت ، ثم الاعتراف ، هذه النظرة من الآخر التي تستند الأعمال الى صاحبها وتكونه في ذاته))**[2] .

والسين سفينة ، والسفينة نجاة من الضياع والفتنة لأن الإمام (عليه السلام) سفينة نجاة من تركها غرق .

والسين سماء وكون ، لأن الحسين سماوي الولادة والنشأة ، كوني العقيدة ، والانتصار والسين سيرورة لحدث جلل ، سيرورة لصراع مركزي بين الحق والباطل . والسين سجايا القائد والمصلح الذي بكى على قاتليه خوفاً عليهم من النار والسين سمة من سمات العصمة وسيمياء الرسالة المحمدية ، إنها أبعاد ميتافيزيقية تتجلى في رحم الكون لترسم سفراً من الخلود في أقدس مكان وأقدس بطل عرفته الدنيا . والسين : سفير كوني يتحدث بلغة الأرض ، بكته السماء يوم ولادته ، بكته دماً ، سفيرالخلود الى الجنة . أما معاني الحاء والسين معا فهما يشكلان قمة الاحساس المرهف بقضايا الكون والانسان مطلقا .

كربلاء: وهي مركب إسنادي ناشئ عن جملة كرب وبلاء وهما دلالتان محوريتان في تصعيد الحدث الكوني ، كون كربلاء أسم سماوي يستقري حدثاً مستقبلياً سيكون له الأثر البارز في حياة الأمم القادمة .

فالكرب . وهو قمة الغم والهم والمصيبة ، كون كربلاء تعني حدثاً بُلغ الرسول الأكرم بحدوثه ، وكربلاء تحمل الفرادة الكونية ، فالكاف كون سماوي تصدر عنه حالة الإعلان لاستقراء مؤجل عن حدوث البلاء . والراء رثاء مطلق ، تبكيه الملائكة قبل حدوثه . والبلاء : تلك بداية كونية لقضية دنيوية ، الباء : بوابة النص والحدث ، عتبة كبرى ، بداية حقيقية لإنطلاق يؤسس لدولة إلاهية وهي تشترك مع الباء الاخرى من خلال الدمج الصوتي الذي أعطى تجسيما للكلمتين . لا : اللام والألف : كلمة الرفض . لا للذلة والمسكنة قالها الإمام . هيهات منا الذلة الرفض المطلق . سيرورة من التحدي . والهمزة في كل حالات الاعتلاء والارتقاء والعلو . فكربلاء عتبة نصية تتمظهر في حركة فعل كوني يجسد حراكاً لراهنية حقيقية ، تحرك معها عوامل إخرى غائبة في الغيب والوجود في أضخم تفرد لفاعل ذات يمتلك كل تلك القداسة .

2- الدلالة الكونية وأفق الإستقراء المؤجل :

قارورة دلالية مصدرها الكون السماوي يأتي بها جبرئيل (عليه السلام) ليعلن حزن آل الرسول . قال رسول الله (ﷺ) مخاطباً أم سلمة

- يا أم سلمة ، خذي هذه القارورة فإن فيها تراب كربلاء ، فإن تحول التراب دماً عبيطاً فأعلمي ان ولدي الحسين (عليه السلام) قد قتل [3] وهي إشارة لفك أفق الاستقراء المؤجل ، كون ام سلمة ستكون حاضرة في الحدث وشاهدة عليه، إذ يمتد بها العمر طويلاً حتى إستشهاد الإمام (عليه السلام) وهذا أول إستقراء كوني في قضية ستشكل كشفا للغيب وصولاً الى أرض الاعجاز كربلاء حيث مكان الدم المراق . وفي هذا الاستقراء صورتان :

الصورة الأولى : قارورة تراب تتحول الى دم عبيط ، عملية التحويل تتماشى مع عملية الاستقراء لتنتج حدثاً زمانياً وكونياً ، يمتاز على الأحداث الأخرى ، كونه لا تتم قراءته الا بعد حدوثه ، بل أن قراءته كانت سابقة على حدوثه وهذا إنما يعطي الحدث السردي مكانة كائنة وغير متخيلة ولا يسمح لغير الخفاءات الأخرى أن تشكل الحدث . فالحدث وحي سماوي بوساطة جبرائيل (عليه السلام) يعلن وقوع الحدث بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والحدث الكوني متجسد قطعاً وواقع كونه صادر عن الغيب ومتمفصل في ثنايا الحدث القادم ، وهنا يتراجع راوي السرد لأنه لا طاقة له على اختزال تخيله ، فالرواية نابعة من العصمة المحمدية مقدرة بقضاء الله تعالى وصولاً الى الحدث الذي نرتقبه من خلال الاخبار وصولاً الى نص ملحمة كربلاء وهو نص قدر له أن يبقى بغير تحريف .

ام سلمة ، تنقل الحدث بل تترقبه ستين عاماً ، هي الأعوام التي تلت الاخبار عن رسول الله (ﷺ) حتى وقوع الملحمة ، وهي تتفقد القارورة كل يوم ، بل أنها تعبدت من خلال الدال والمدلول ، فكان استقراءً تعبدياً وكشفاً لما سيكون ، وحضور أم سلمة شهادة لرؤية ستتفاعل مادتها في عنصر التراب المتحول مع الأيام دماً ، وحتى يتحقق التحول الزماني في المكان الصغير - القارورة - فإن الشاهدة سيكون لها دور في القادم من الزمن أن تعلن استشهاد الإمام بعد طول خوف وبكاء وانتظار ، إذ تحقق ذلك الاخبار من خلال القارورة التي رأتها الشاهدة لتعلن عن المقتل . إذ تسأل . **((ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : رأيت رسول الله (ﷺ) في المنام الساعة شعثاً مذعوراً فسألته عن شانه فقال : قتل ابني الحسين (عليه السلام) وأهل بيته اليوم))** [4]

إن صيرورة التراب دماً كانت العلامة الاستقرائية التي ربطت الخبر بالنص وأعلنت بداية الحدث والبلاء : أي أنها كانت تتعبد في متابعة الحدث ومصاحبته الذي سيكون ، وهي دلالة سيميائية لأثر كائن وما سيكون .

الصورة الثانية : أرض كربلاء اذ يتم إكتشافها ومنذ بدء الخليقة من خلال اخبار الله عزوجل لأنبيائه، وهي اشارات واضحة تم الإخبار عنها للأنبياء في أرض كربلاء . إذ يبحث أنبياء الله عن كربلاء التي تمتد عبر الصحراء بعلاقة مترابطة ، مع الكون ، لأن ترابها كوني يتحول الى دم ، الدم النازف من جسد الحسين ، لا يسقط على الأرض بل يصعد الى السماء لتتحول أرض كربلاء الى فضاء كوني له دلالاته المرجعية بدليل حديث القارورة السالف الذكر.

إن عملية الاستقراء المؤجل ، تكشف لنا عن البطل ، وهو لما يزل وليداً صغيراً ، يتقاطع عنده دافع الفرح مع دافع المصير ، البطل الوليد في رحاب استقراء سيكون بعد ستين عاماً ، وإكتشاف البطل يعني السيرورة لاعداده إعداداً خاصاً يؤهله الى مرحلة قادمة وهذا ما يطلق عليه التأهيل **((فالتأهيل سابق لحركة العامل وفاعليته وهو إنما نفهمه على أساس الاختيار))** [5] وذلك الاختيار انما يتم بالترشيح ، كون المرشح مرجعية كونية قادرة على رسم دور البطل بنجاح تام ، ويتم ذلك عبر التأجيل لزمن قادم .

فالبطل يمثل دعامة لكينونة رسالية ، تعمل على إنجاز شريعة الله بحدودها الطبيعية ، لذا فإن القيم على تأهيل البطل هو شخص رسالي يتلقى غيبياً أوامر الله ، يعمل على أن يسخر كل عوامل النجاح لبطله المستقبلي لإيصاله قضيته عبر الكون ، ليجسد من خلالها حركة مضادة تقوم بإجهاض كل مؤامرات الظلم والظالمين . ويتجلى التأهيل في زمن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ يتجسد الاستقراء المؤجل في مواكبة الدلالات المؤدية الى بوابة الكون / كربلاء من خلال الملامح الآتية :

1- صعود الإمام الحسين (عليه السلام) على ظهر جده النبي وهو في حالة السجود وهو صغير السن يدفع الرسول الأكرم (ﷺ) أن يطيل سجوده ، ليتمكن الإمام من البقاء على ظهره ، على الرغم من أن أصحابه رأوا إنزاله ، لكن الرسول الأكرم (ﷺ) ، يومئ إليهم بضرورة بقائه خوفاً عليه .
2- ان ذلك الصعود على ظهر الرسول الأكرم (ﷺ) كان صعوداً دلالياً ، كون المصلح الكوني يعتلي قمة المحراب العبادي المطلق .
3- خشية الرسول الأكرم (ﷺ) إنزال أبنه الحسين ، لأن ذلك يعمل على تصدع قلبه وحزنه لأنه يعلم أن السماء تستعد للبكاء الطويل عليه .
4- الإعداد الرسالي كان في قمته ، وهو يرى أن جبرائيل (عليه السلام) يستقري معه مصير هذا الطفل في قصة القارورة الوافدة من السماء التي تكشف النقاب عن المصير الذي سيؤول إليه الإمام في كربلاء لاحقاً .

إذن تتحقق فاعلية البطل منذ البداية ، كونها تشكل تفرداً كونياً لحركة فاعلية يتم إعدادها منذ الطفولة . إذ تتهيأ ظروف كونية رسالية تنشئ تلك الشخصية بكثير من التأني والخوف ، وكما مر علينا في حديث القارورة التي أصبحت رمزاً ودلالة وخبراً ، يكشف من خلاله الإيذان لخوض المعركة أو إستشهاد الإمام (عليه السلام) .

ونحن إذ نتلمس من خلال نظام الفاعلية ، أن العوامل المساعدة التي هيأت للإمام أسباب النجاح بثورته التي حركت الثائرين اليها ، ليكون رمزاً دلالياً على قضية كونية ستكون مساراً مكملاً للنهضة الحسينية من خلال الحركة الدالة والفعل الحركي الدال كون العامل الذات في قضية الإمام الحسين (عليه السلام) **((يجسد أدواراً حركية تنبع من أفعال مؤثرة تؤدي الى غايات وأهداف بعيدة المدى))** [6] .

والبطل الذات تتمركز حركته بزمن مبكر ، يدرك من خلال الكشف أن العوامل المساعدة بنجاح الدور الكبير إنما تحظى بالإحاطة الكبرى لمجمل عملية الإنطلاق النهضوي لتشكل لنا بُعداً معرفياً يمهد لنجاح البطل رغم الصعاب الكبرى التي سترافق هذا الحراك من لدن سلطة عليا كونية عالمة بما سيؤول اليه مصير البطل .

وبطلنا لا يمكن أن نطلق عليه اسم بطل أسطوري لأنه بطل حقيقي عاش على الأرض وأريق دمه عليها لذا فإن علامة الدال والمدلول وتقاطعهما في العلاقة الكونية شكل بعداً معرفياً سوسولوجياً ، يتقاطع مع الأرض صاحبة العلاقة مع الحراك كونها تمثل بعدا كونياً. وتلك العلاقة سيكون لها إرتباط بالدليل الاستقرائي **((بمعنى أن الدليل المصدر يؤشر عليه بفضل تلك المعرفة المسبقة بالعلاقة))** [7] . ونحن إذ نعد النسق المعرفي تكويناً لفكرة كونية متعالية تمتلك القابلية على انسجام ذلك النسق بكامل معارفه النظرية، وذلك إنما يتجلى بالكشف المحايث الأولي للمصيبة التي ستقع . فالرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلن ذلك مراراً ويبكي ، والإمام علي (سلام الله عليه) يعلن ذلك في مروره بكربلاء وهو بطريقه الى صفين يؤكد ويومئ بأصبعه **((ها هنا مهراق دمائهم . ثقل لآل محمد ينزل ههنا))** [8] .

إن هذا الإستقراء المبكر لبطولة مبكرة إنما تتجلى في قداسة البطل وقداسة قضيته لذا فإن عوامل الاعاقة الزمكانية،الشخصية،الاجتماعية،القبلية لقضية الفاعل الذات التي إنطلقت من خلال الابعاد التراكمية التأريخية لإجهاض الفكر الحسيني لأن المعادلة المقلوبةالتي كانت قد أعدت لإعاقة البطل ، تمتلك من الضخامة بمكان أنها لا تتعادل في الجانب القيمي ولا الحركي وكما هو موضح في الرسم الآتي :

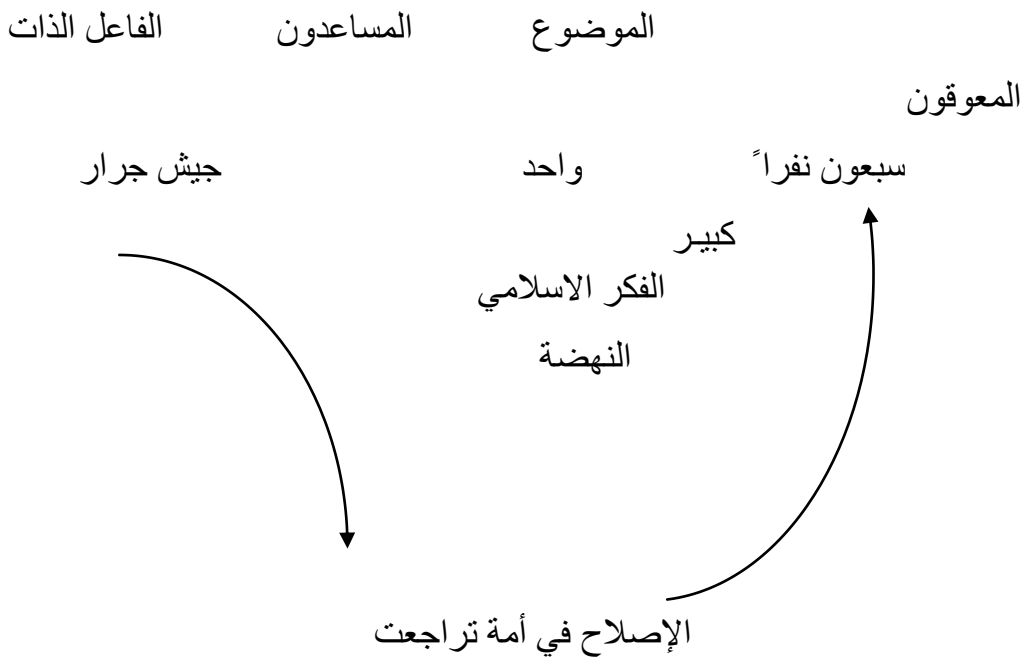

فالبطل واحد والاعاقة هائلة ، منها أن عشرات الالاف من النبال تتجه صوب حراك البطل ، والبطل هنا لا يداخله الخوف ، فالمعادلة عاثرة جداً لأن انطلاق آلاف النبال لالغاء حراك جسد واحد قطعاً لا يراد به ذلك الجسد وإنما إعاقة روح ذلك الجسد وإطفاء الصبغة التكاثرية لالغاء حركة التغيير .

إذن، البطل مهد لقضية أبتعدت عن الخوف والتراجع ومما ادى الى انحسارمعنوية الجيش الهائل ، يتراجع الجيش ويتفكك رغم سقوط الجسد الجريح أرضاً فإن الكثرة الكاثرة من الذين حاربوه عن بعد خافوا الاقتراب منه .

إذن نحن أمام قضية نادرة هي أن بطلاً وفاعلاً ينتصر حركياً في حياته وبعدها يشكل هاجساً من الخلود ، ويشكل هاجساً من الهزيمة في قلوب أعدائه ينتج عنه توجهاً لخطاب مباشر يطلقه الإمام (عليه السلام) لافهام الجيش الذي يحاربه أن الذي تحاربونه هو فكر رسالي محمدي يتجسد في جسد الحسين فهو يقول أنسبوني من أنا ، دلالة إعترافية لتنكر هؤلاء للبطل الذي يحاربونه خشية أن تتوافر عوامل أخرى مقيدة لعدم المعرفة والاخبار ، وبالفعل قد حدث مثل هذا التعتيم للبطل الكوني الرسالي غير أنهم أحاطوا به ثم قتلوه . وذبحوه غريباً عطشاً ببغيهم **((أما البغي فهو حالة إفتقار للقوة المضادة وكذلك التجبر هو حالة إفتقار للرفض والثورة ، والحالة تمثل دينامية مشروعة للانتقال من وضع لآخر))** [9] تلك محورية بطولية شخصانية لها جذور في وعي الانسان وتجرده عن الانحراف كونها **((تستلهم أهميتها من عمق تواجد الانسان في هذا الكون ومن إتصاله إتصالاً مباشراً مع الآخرين وإشتراكه معهم في مبادئ كونية كالحرية))** [10] .

إذن النتائج التي يتوخاها البطل من منطلق عمق التاريخ الانساني هو بلوغ حرية كونية يرقى لها الفرد من منظور ثوري يتجرد عن الآني وهذا ما تلمسناه في ملحمة الطف الخالدة .

3- فاعلية العلامات :

لا شك ان كل الصور والحيثيات التي إنطلقت منها ملحمة الطف كانت تمتلك بوابة هائلة من الصور والعلامات السيميائية وفقاً للمشاهد الخارقة التي وقعت على أرض الطف ومن منظور كوني أرضي ومن منظور أرضي كوني في دلالات رائعة التصور ، كامنة في الوعي الجمعي المنطلق نحو الكمال والتغيير ، بفرادة التأريخ وعمق الاصالة لأنها حركت موروثاً غاية في القداسة والنبل ، ما زلنا نقف حائرين أمام بواباته النصية والسيميائية مستلهمين منه فاعليات رائعة لبطولات نادرة ومن خلال الكشف عن العلامات السيميائية وفاعليتها نجد ان الإمام الحسين (عليه السلام) علامة كبرى ورأسه علامة كونية أكبر . كون الرأس شكل لنا محورين اساسيين : المحور الأول كون الرأس يُعد في نظرنا الفكر النهضوي وعلامة الوجود الكوني لمصلح استطاع أن يقلب المعادلات ليحدث إنطلاقاً موازياً لحركة ثبات الدين والرسالة . وكذلك فالرأس حين يعلو وفي مقدمة الركب العائد من البطولة المنتصرة اذ تجد الرأس علماً مرفرفاً في سماء الحرية ، بكثير من الرفعة والعلو ، ولأنه أستطاع قيادة الركب حياً وميتاً ، والرأس علامة تصرف النظر الى ما سواها لأنه يملك الدلالة الفاعلة بفعل التكوين الكوني الذي أظهره الرأس الشريف من خوارق كونية على مدار الرحلة المقدسة . والرأس هو الدليل الذي تجاوز قدرته كرمز وتجاوز فاعليته كصورة معنى ليكون دليلاً شاخصاً على كل شيء ، والرأس يمثل وعياً دينامياً مضاداً لعوامل أخرىمن الخيانة والغدر جسدها معسكر الاعداء ، عندما يتبجح (الشمر بن ذي الجوشن) مدركاً ما للرأس من أهمية كبرى فأنشد يقول [11] :

إملأ ركابي فضة أو ذهبــاً إني قتلت السيد المحجبــا
وخيرهم من يذكرون النسبا قتلت خير الناس أماً وأبا

وإذا كان الآمام (عليه السلام) بهذه الدرجة من قداسة الحجب الآلهية في حياته وهو خير من يذكر النسب ، يعترف المعوق الأثيم أنه قتل من كان أبوه وأمه من خيرة الناس ، وهذه إنما نعدها علامة إشارية ذات وجهين تتمفصل في خطاب اعداء البطل لإظهار قداسة البطل الذين قاتلوه ، وقتلوه .

والرأس علامة أولى ، لكنها بالنسبة لموضوعتها تعد **((كعلامة ثانية ، أو بالنسبة لمؤولها كعلامة ثالثة))** [12]

والرأس يندرج ضمن العلامة الثالثة التي ستكون **((علامة مقننة أو علامة نموذج مثالي : أي ستكون علامة عرفية))** [13] والرأس مثلما يشكل إمتداداً لفكر فإنه يمثل عرفاً نسقياً إمتداداً كونياً لمنهجية التصدي والتغيير .

وكما الرأس علامة حركية فأنه يمثل شاهداً ودليلاً حيثما كان في صورته قبل الذبح فإن الجسد يُعد هدفاً كبيراً لعشرات الالاف من النبال كلها تصوب نحو جسد واحد ،عمل خارق أن يكون التقابل بين جسد واحد تقابله عشرة آلاف نبلة ، هنا يحدث الخرق ، في موازنة القوى والتناسق مع الموقف العام ، وهذا واضح لأن النبال ما كانت تقصد جسد الإمام الحسين (عليه السلام) بل كانت تقصد القضية المتمفصلة في داخل الجسد الشريف وروحه في فكره ونهضته المقدسة، بل الرؤوس الأخرى ايظاعلامات ، وهي تتقدم الركب الحزين الذي يضم قافلة الاسارى في منظر قل نظيره من مناظر الوجود الانساني .

وإذا كان الرأس علامة فالرمح إذن علامة ، فهوعلامة الاشرآب نحو العلو والانطلاق .فماعلاقة الرمح بالرأس ؟إنها لازمة الشهرة بحثاًعن الارتفاع حتى يتاح للناظر إستقراء ما للرؤوس من قصص . والرأس المقطوع دلالة عن فصل الوعي والفكرعن الجسد ،ويعني ذلك عملية الخروج عن الفكر المنحرف ، لذا تم الفصل لاعاقة ذلك التمفصل في جسد الأمة وإلزامها بمبدأ الركون . ومثلما للجسد علامة فإن للرمل علامة ايظا ، تتشكل عبر الدم قداسة التراب الذي كان مقدساً منذ اخبار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في قصة القارورة . وهل هناك مدلول آخر للتراب غير الطهارة والقداسة ، نعم هناك مدلول آخر حينما يتحول التراب الممتزج دماً الى التبر وصولاً الى ذروة القبة السامقة التي تتوضئ بالذهب ، والدم علامة وعلامته أن من صفات هذا الخليط إذاما صعد الى السماء فإن قطراته يستعصي عليها النزول، وهذا سر الرفض .

والكف علامة ،وكفا أبي الفضل (عليه السلام) تحملان علامة ، كونهما يمثلان علامة للرجولة والبطولة والسيف ، وهو بالتالي إلتواء على المساعدين الفاعلين لقضية الإمام (عليه السلام) والإجهاز عليهم .

الاثنان والسبعون جسداًعلامة بل علامات للرفض ، بدليل قطع رؤوسهم إلا واحداً دلالة الغربة في أرض العراق ، فالحر بن يزيد الرياحي بقي رأسه على جسده لأنه بين عشيرته ، وهذا بعد آخر لغربة أنصار الحسين وتفرد قضيتهم .

إن مجرد التفكير في ذلك التجلي يوصلنا الى سمات نسق عام ، يجيب إجابة متعالية عن الموضوع المعرفي ، تكون خاضعة للبعد الأيديولوجي ، وللبنى الفكرية ، المتعلقة بالمنهج الكوني وإدراجها ضمن نسيج العمل السيميائي وعلى طريقة التحايث والتشاكل الموضوعي لأنساق معرفية واضحة .

4- سيميائية الألوان :

كان أكثر الألوان تفاعلاً مع معركة الطف هو اللون الأحمر ، كونه يشكل بروزاً انزياحياً ولد الكثير من العلامات الكونية والأرضية ، بل صار مقترناً بكل حركة أو صورة وهذا هو المؤول الدينامي الذي **((يبحث عن معلوماته في السياق نفسه))** [14] فاللون الأحمر لا يمكن أن يتجرد لوحده إلا إذا ربط بموضوعه إرتباطاً علاماتياً ، والأحمر هنا يرتبط في قضية ذات بعد كوني ، كونه يشكل إنزياحاً مستمراً ، وصولاً لعلاقة إعتباطية ترافق الحدث ، ولا يمكن بأي حال إزاحة الأحمر من المدلول الذهني ،إذ يتحول عندنا الرمز الى قضية نازفة لعشرات القرون ، والأحمر يبقى نزيفاً مقدساً يحمل قداسته في كل أرض إذ لا يسمح بتقمص فرادة الأحمر إلا من كونه نزفاً دالاً على قضية تحمل فرادة كونية ، ودليلنا على ذلك أن الشعار الكوني الذي تحمله القبة الشريفة هو شعار الدم مشكلاً بعلم أحمر يتحرك نحو الآفاق ، يتقاطع مع حمرة الغسق المعجونة أصلاً بدم الإمام الحسين (عليه السلام) .

فالأحمر دم خاص له دلالاته ، وهو مزيج غريب يعيد لك الحياة ويسلبك الحياة والدم هنا يحمل شفرة بالغة التعقيد ، كونه قد تحرك في جسد أو أجساد أعطت لله كل شيء ، فإذا ما يقذف به أي الدم الى السماء فلن تسقط منه قطرة ، وهذا هو التشكيل الاعجازي لتبني السماء اهمية الدم لأهداف كبرى فتصبغ نفسها بلون الدم حزناً على الامام الحسين (عليه السلام) ومثلما صبغت السماء ثوبها بدم الحسين (عليه السلام) كان جواد الإمام (عليه السلام) **((يمرغ ناصيته بدمه ويشمه ويصهل صهيلاً عالياً))** [15] ولم يكن الدم وليد الملحمة الحسينية بل تعداه الى رجالٍ تأخروا عن نصرته وأرادوا سكب دمائهم على الأرض توبة وندماً .

ومثلما يشكل الأحمر قدراً كونياً له علاماته السيميائية فإن العجيب العجيب أن ثياب قاتليه كانت حمراء بلون الدم الذي سفكوه ، بل كانت السماء تمطر دماً ، بل امتلأت الحباب والجرار وكل شيء ملأن دماً ، بل سالت الجدران دماً ، بل أصبحت الدماء حديث الناس في كل مكان لأشهر ثلاثة [16] كل ذلك يحيلنا الى فاعلية الدم المراق في قضية إلاهية وكونية نتلمس آثارها في عصرنا هذا ، رغم تقادم الزمن ، والدم المراق لا يمكن أن يكون إلا نزفاً متحققاً ، فالدم يتعالق مع الموت ، والنزف دلالة الشهادة أوالدليل على أن نسقاً إشارياً إستبعد الروح الكاملة رغبة بعبودية مطلقة للدنيا ، والشيطان العار وكما هو موضح في أدناه :

البقعة كثافة لونية تساوي جسداً قتيلاً
الدم : محاولة إختراق الكون
السيف : انتصار الدم على السيف
التراب : يصبح المذبح محراباً للصلاة
الهزيمة : العار الأبدي ، الشيطان لعنة التأريخ

والسيوف تصبح صدئة بالدم ، تخنع في وجه الانتصار ، الدم كائن كوني بطل اسطوري كونه من عوالم أخرى ، والدم امتداد لكل قضية ، والراية الحمراء ما زالت نازفة أما اللون الأسود فقد غمر القلوب حزناً إذ تتشح كل الدنيا بالسواد حزناً على الإمام الحسين (عليه السلام) .

5- دينامية النص الملحمي :

تتمحور دينامية النص الملحمي في ملحمة الطف على خطاب عالي التوجيه ، لمواجهة العدو بكل قوة إستكمالاً للدور الرسالي . قال الإمام الحسين (عليه السلام) **((والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد))** [17] ذلك التحرك النصي إنما تتمحور حوله كل القضايا الأخرى ، لذا فإن نص ملحمة الطف قد ركز على قضيتين ، الأولى على عدالة الثورة الحسينية لأنها جاءت لتصحيح المسار الخاطئ . والثانية : حفزت التفاعل العاطفي لدى الأمة لنصرة الامام . والنص الحسيني غني بالحراك والفاعلية ، كونه يزخر ببطولة نادرة لم تتكرر على مر العصور ، كونه أصبح خالداً يتكرر ، ولا غرابة في أن تكراره يوجب التشوق والتجلي في عوالم أخرى من القدسية والترابط.

والنص إمتداد لنصوص أخرى تدور في فلكه ، من حيث الشعر رثاءً وحزناً فتتوالى في فوز الشهادة تتوازى مع النص الحسيني مؤلفات كبرى لاحياء النهضة الخالدة ، وهذا يؤدي بدوره الى تعدد الدلالات التي **((تؤكد مقولة قبول النص لعدد لا يحصى من القراءات ، حيث تتناول كل قراءة مستوى واحداً أو عدداً من المستويات))** [18] وهذا انما يؤدي أيضاً الى انفتاح النص سيميائياً على غيره من المستويات مشكلا انزياحاً على التأريخ ضمن قرون تلت سنة 61 هجرية ، كون ذلك يشكل لنا تفاعلاً نصياً تأريخياً ، تمتاز نصوصه على قابليتها على التأويل والقراءة **((كون هذه المتفاعلات تحتل حيزاً هاماً من حيث هي بنيات نصية متفاعل معها في إطار النص – المتن))** [19] .

تلك المتفاعلات النصية نجدها في الشعر والنثر ، في الشعر نجدها عند سيرة عنترة الشعرية وآثارها في سجل بطولي متفرد وكذلك نجدها تتفاعل نصياً في نصوص رجل متصوف كالحلاج ، لكن تلك المتفاعلات النصية لم تقدر لها الفرادة من حيث القداسة كونها لا تتحلى بقدر أكبر من التوجه الكوني والمتعالي .

وكما تأثر المتلقي بتلك المتفاعلات في كثير من الأحيان كأبطال السيرة الشعبية ، في الجانب النثري، لكن ذلك لم يخل من الزمن التخييلي والسردي ، بخلاف النص الحسيني الذي كان بعيداً عن الصناعة التخيلية للبطل ، كون بطل النص الحسيني لم يكن على غرار البطل المتخيل الوهمي ولم يكن من نسج الرواة على طريقة صناعتهم للبطل ، لأن البطل في النص الحسيني كان قد بدأ بطولته قبل ستين عاماً قبل زمن واقعة الطف الخالدة .

وقد تطالعنا مناصات كثيرة في النص الملحمي الحسيني ، لكنها تدور قطعاً في فلك النص الأصلي تحاثيه وتدور معه في روح متعالية ، تثري الحراك المتعالي للنص في زمن كان النص يقدر فرداته في كل عام ولأنه يحظى بالولاء والاعتناق من لدن مختلف الشرائح المحلية والعالمية ، وكون النص الحسيني تجاوز حدود المحلية المكانية ، حصراً في كربلاء لكن المتفاعلات النصية ، قد تم تعاطيها خارج تلك الآفاق لتشكل إهتماماً مثيراً من لدن قادة العالم وحكمائه أمثال غاندي وغاروري وغيرهم. وازاء ذلك ندرك أن الدينامية النصية التي اشتغلت على المشاكلة والمحايثة من حيث المتشابه والمختلف والباطن في رفد إستقراء الموروث والراهن قدمت لنا إنفتاحات للنص وديمومات مستقبلية ما زالت تتحرك ضمن مسارات المناهج الحديثة بفرادتها المطلقة

خاتمة البحث ونتائجه

نحن إزاء محاولة للتعرف على أبعاد الدلالات الكونية ومدى إمكانية تعالقها مع المنهج السيميائي وفق نظرية التحليل السيميائي لمقتربات عدة ، تتجلى فيها العتبة النصية بأبعادها المختلفة ، وصولاً الى حيثيات الاستقراء المؤجل ، وتحديد معالم مبكرة للبطل ، وديناميةالنص الذي كان يضم حراك هذا البطل ، وعروجاً الى سيميائية ألوان ذلك الحراك ، ومدى فاعلية علاماته الدالة عليه ، وهو بالتالي سياحة في فرائد التراث العربي والاسلامي من منظور كوني ورسالي للتعرف على مجمل الدلالات السيميائية التي يكتنفها نص مثل نص ملحمة كربلاء والتعرف على إستقراء أفق النسق السيميائي لبطولة فريدة ، يمتلك الفرادة الدلالية والحركية للإمام الحسين (عليه السلام) وقد وقفنا على النتائج الآتية :

1- في أول حراكنا السيميائي ، تلمسنا رؤىً خاصة بعتبة النص بل عتبات متعددة ، إذ تتبلور من خلال التحليل الآفاق الرحبة لمجمل تلك العنوانات المحملة بشفراتها ودلالاتها الخاصة ، وتأكد لدينا أن كل حرف من تلك العتبات إنما يحيل لملامح كبيرة في الخطاب والاستقراء والربط ، ومثلما كانت الحروف المجزأة تحمل لنا تصوراً عن حوادث كثيرة ومسميات استقرأنا من خلالها أبعاد العملية النصية دخولاً الى فهم مجريات التوجه الكوني لقضية الأمام الحسين (عليه السلام) ، وهو خطاب كوني ، متجسد في روح البطل ودليل الواقعة مدى الحياة .
2- وفي مقتربنا الثاني ، اشتغلنا على الاستقراء وكشفنا النقاب عن دلالات الكشف عن الحدث المؤجل بشكل مبكر ورتبنا الحراك الخاص من خلال الاخبار لما سيؤول إليه مصير البطل وعملنا على مواكبة العوامل المساعدة الأولى والمحافظة على تهيأة هكذا نوع من الأبطال غيبياً إذ أن البطولة صائرة بنوع من التوفيق الآلهي . ويتشكل من خلالها إنتصار حتمي للقيم والفكر النهضوي ، إذ كان للدم سطوته الكبرى وانتصاره على السيف في زمن كانت كل السيوف مشرعة لتجاوز الشريعة الكونية المتمثلة بالمصلح الكوني الحسيني ، الذي يتمثل في الفاعل الذات الذي حاز الخلود منتصراً حياً وقتيلاً .
3- وفي مقترب فاعلية العلامات استطعنا أن نحايث داخل العلامات ونتأول من خلال الاشارات الكونية فكان الرأس بوصفه علامة استطاعت أن تكشف الكثير من فاعليته التي ربطت حقائق الوجود الفكري وبينت أن الأعداء أرادوا عرض قضية الرأس للتدليل أن الفكر الحسيني قد تلاشى لكن الرأس الشريف كعلامة ظل قائماً بنفس الدور الذي كان يخافونه ، من التكلم والاحتجاج فأسقط مابأيديهم ، فالفاعلية لم تتوقف قط عن مسارها وظلت في حراكها الصحيح .
4- وفي المقترب الرابع كانت لنا نتائج في دلالات الألوان ، ومعانيها ، وخاصة الانزياح الذي تركه اللون الأحمر ، ثورة ونزقاً وخلوداً ليشكل إنطلاقة خاصة وبعداً خاصاً ، بينما يتحلى اللون الأسود ليؤكد حزن الكون على مصيبة كربلاء وشعاراً يجدده أنصار الامام كل يوم .
5- وفي مقتربنا الأخير أدركنا دينامية النص وانفتاحها من خلال الفرادة التي كان عليها نص ملحمة كربلاء وأدركنا قابليته على البقاء والتجدد والتفاعل مع نصوص أخرى شعرية ونثرية كونه نصاً ذو مواصفات كونية نتج عنه انتصار للفكر الانساني على امتداد الدهور ليشكل إنعطافة نصية خاصة في زمن لا يمكن للنصوص الأخرى ان تمتلك الفرادة مثله وأعني النصوص الوضعية .

وفي الختام كان الأمل يحدونا لكشف العلامات الدالة على المنهج الكوني ، من خلال أفق النسق الإشاري لبطولة نادرة ، يتفوق بطلها حياً وقتيلاً ليحيا في فكره ونهضته ، ألا وهي بطولة الأمام الحسين في ملحمة الطف الخالدة .

الباحث

الهوامـــــش :

1- ينظر : (البحث الدلالي عند ابن سينا) ، ص55 .
2- مدخل الى السيميائية السردية والخطابية ، ص22 .
3- ينظر : (بحار الأنوار) ، ج45 / 160 .
4- بحار الأنوار ، ج45 / 160 .
5- التحليل السيميائي للخطاب ، ص38 .
6- المرجع نفسه ، ص38 .
7- آليات إنتاج النص الروائي ، ص105 .
8- مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) ، ص36 .
9- التحليل السيميائي للخطاب ، ص28 .
10- من النسق الى الذات ، ص104 .
11- مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) ، ص278 .
12- السيميائيات أو نظرية العلامات ، ص51 .
13- المرجع نفسه ، ص52 .
14- المرجع نفسه ، ص139 .
15- بحار الأنوار ، ج10 / 205 .
16- ينظر : (مقتل الإمام الحسين (عليه السلام)) ، ص267 .
17- مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) ، ص209 .
18- نظرية النص من بنية المعنى الى سيميائية الدال ، ص103 .
19- إنفتاح النص الروائي ، ص106

المصادر والمراجع :

1- آليات إنتاج النص الروائي ، نحو تصور سيميائي ، عبد اللطيف محفوظ ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر ، ط1 ، 2008م .
2- إنفتاح النص الروائي ، النص والسياق ، سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط3 ، 2006م .
3- البحث الدلالي عند ابن سينا ، دراسة أسلوبية في ضوء اللسانيات ، الدكتور مشتاق كاظم العوادي ، مؤسسة البلاغ دار سلوني ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 2003م .
4- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ، العلامة الحجة فخر الأمة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي (قدس سره) ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 2008م .
5- التحليل السيميائي للخطاب ، قراءة في حكايات كليلة ودمنة لابن المقفع ، الدكتور ناصر شاكر الاسدي ، دار السياب ، لندن ، ط1 ، 2009م .
6- السيميائيات أو نظرية العلامات ، جيرارد دولو دال ، تـ د. عبد الرحمن بو علي ، دار الحوار ، اللاذقية سورية ، ط1 ، 2004م .
7- مدخل الى السيميائية السردية والخطابية ، جوزيف كورتيس ، تـ : جمال حضري ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر ، ط1 ، 2007م .
8- مقتل الأمام الحسين (عليه السلام) ، العلامة المرجع المحقق المرحوم السيد عبد الرزاق الموسوي المقرم ، مؤسسة التأريخ العربي ، بيروت / لبنان ، ط1 ، 2009م .
9- من النسق إلى الذات ، د. عمر مهيبل ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر ، ط1 ، 2007م .
10- نظرية النص من بنية المعنى الى سيميائية الدال ، د. حسين خمري ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، الجزائر ، ط1 ، 2007م .